أنت لسه عايش ؟!!

جملتـه الشـهيرة التـي يطالعـك بهـا كلـما التقيتـما !! والتـي تمقتهـا، وتمقـت معهـا ضحكتـه السـمجة التـي تتبعهـا، وتتمنـى زوالـه مـن أمـام ناظريـك في التـو واللحظـة، حتـى أصبحـت تتحاشـاه حـين تلمحـه في أي مـكان يجمعـك بـه، وتفـر منـه فرار الفريسـة مـن القنـص، كـي لا تسـمع تلـك الجملـة المقيتـة !!

بضـع أعـوام فرقتكـما فيـه مشـاغل الحيـا، ومطالـب البيـت الـذي حملـت همومـه بعـد الـزواج، تـلاشي بملامحـه السـمجة وجملتـه الشـهيرة التـي يطالعـك بهـا، تتنهـد في تعـب ووهـن أشـتد عليـك مـن بعـد مـا داهمـك المـر، وجعـل كليتـك تفشـل في أداء مهامهـا !! فثقلـت خطواتـك التـي تجرهـا جـرّاً، وأنـت تلـف عـلى مقاهـى وسـط البلـد تعـرض بضاعتـك الصينـي، لتزيـد مـن دخلـك، فمرتـب الحكومـة لا يفـي بطلبـات الأولاد ومصاريـف البيـت، ولا بـد أن تـدور الطاحونـة بـلا توقـف !!

حتى يحين الأجل، تتغلب على آلامك منذ أن تفتح عينيك لصباح يومٍ جديد، تكتم أناتك وأنت تمضي نحو المصلحة الحكومية، تقف أمام النصبة تجهز المشروبات والسندوتشات، تلبي طلبات الموظفين التي لا تنقطع، تتغلب على تعبك وإرهاقك بنصف حبة الترامودول الذي أدمنته، والتي أثرت على كليتك وأنت لا تدري بأضرارها فكل الذي يهمك أن تنسى أوجاعك، حتى تسلم الجسد المهدود لقسطٍ من الراحة عندما تأوي على فراشك بعد منتصف الليل !! دائرة الجوع التي حاصرك فيها الساسة وصناع القرار، جعلوك لا تفكر في الغد، وانصب كل تفكيرك في العمل المتواصل، حتى توفي طلبات البيت !!

تدور وتدور وتدور، تلف على المقاهي ببضاعتك الصينية، يزداد تعبك، وتأبى قدماك المنهكتان بأن تحمل جسدك الواهن خطوة واحدة !! ترتمي على أقرب مقعد وتحط بدنك الموجوع عليه، وترتكز على المائدة وتزفر صهداً، تقع عيناك على ساعة الحائط الكلاسيكية، وتنظر إلى بندولها الذي يشبهك، ينقض عليك النادل ببسمته السمجة ويهب فيك ويقول في شخطة :»تشرب أيه ؟!!»

« شاي بحليب»

تلتقت عيناك الجائعتان بائع السميط، فتناديه !! بينما تشتم أنفك رائحة الشواء الصادرة من عربة الكبدة الواقفة بجوار المقهى، ترغم نفسك على الإذعان لتناول السيمطتين مع كوب الشاي بحليب، تبخل على نفسك أن تبرها بطعام شهي !! فطلبات البيت كالغول الذي يأكل كل دخلك، يعلو حوار شخصين جالسين بجوارك، وأحدهما يقول للأخر :

« لما إيجار الشقة اللي أنا شوفتها بألف جنيه !! يعني تلت المرتب ضاع في إيجار الشقة ! قولي بقي أكل بكام أنا واللي ها أتجوزها .. وأركب مواصلات بكام ؟! وأعيش بكام يا حكومة وسخة !! »

تشاركهم المحنة، وينز من حلقك مرارة وأنت تدعوا على من فكر في سن قوانين الإيجار الجديدة دون مرعاة في حق البسطاء في أن يحيوا في ارتياح، وأنت تعلق في غم :

« الحال من بعضه يا سيدي .. وأعمل زيي وشوف لك شغلانه تانيه بعد الضهر تزود بيها دخلك !! »

« وأدوّر في ساقيه زي البهيمة اللي ينهد حيلها طول النهار، ويبقى أمنية حياتها أنها ترجع الزريبة علشان تتخمد !! »

يرد الآخر في استهجان :

« بالظبط كده !! هو ده اللي الحكومة عايزاه تتهد قوّاك، علشان ما تفكرش في اللي بيعملوه !!»

تلتقت عيناك البائستان بإعلان حديد عز الدخيلة، وتدعو على من شجع هذا الجشع من أن يئد مصنع الحديد الصلب الذي كان يغطي احتياجات السوق المحلية ؛ ولا يكتفي بذلك !! بل منع التجار من استيراد الحديد من الخارج ليحدث توازن في الأسعار كما تسمع من موظفي المصلحة التي تعمل بها، تسبح مع همومك في يأس وتتذكر في غم كيف يلتهم إيجار الشقة المرتفع مرتبك مع فاتورة التليفون والكهرباء والماء غير مصاريف البيت وتعليم الأولاد !! لابد أن تكون كبندول الساعة تعمل بلا توقف !! فلن ترحمك الزوجة القاسية أن عجزت عن تلبية مصاريف البيت والأولاد، تتحاشا الصدام معها كل ليلة، عندما يرتفع شجارها صارخة بكل زهقها في وجهك :

« هو أنت فاكر نفسك عايش ؟!! ولا دي عيشة اللي أنت معيشها لنا ؟!! بلا نيلة في عيشتك اللي تغم !! وتقصر العمر !!»

تأوي إلى فراشك مغموم، وأنت تتساءل في يأس وتعب وقنوط :

« أعمل أيه أكتر م اللي باعمله ؟!! دا أنا باشتغل تلات شغلانات ومش مكفي طلباتكم، أنا تعبت !!»تجز على

أسنانك كاتماً ألمك الناجم عن تعب الكلية العليلة .. تشفق عليك زوجتك، تحنو عليك، تمسح عرقك الذي انهمر بغزارة من جبينك !! وتسألك في جزع :»مالك يا محمد ؟!!»

« المغص ها يفرتك جنبي، هاتي لي الدوا، وأنا ها أبقى كويس»

تهدهد أوجاعك على صدرك، حتى يرحل بك تعبك إلى حيث تحلم بغدٍ أفضل وبحياة تنعم فيها بالراحة والسعادة وسط الأولاد، مثلك مثل أي بني أدم كل أمانيه أن يجد حياة مستقرة ،

يا أيها المربوط في طاحونة الحَوَّجَة والاحتياج، متى تركن إلى الراحة وتنعم بالاستقرار ؟!

يجأر صراخك في جوف الليل من شدة الألم، يُفزّعْ زوجتك ويهرع الأولاد نحوك في وجل يستطلعون ما ألم بك، تحملك عربة الجار إلى أقرب مستشفى، مبنى قديم متهالك تفوح منه رائحة الموت ويملأ جنباته القاذورات بعد أن فقد أدميته !! فلم يعد المسئولون عليه يهتموا بنظافته أو يبحثون عن راحة المرضي، تخلوا عن صفتهم القديمة»ملائكة الرحمة»المدير لا يهتم بمحاسبة مرؤوسيه على هذا الإهمال، كل همه أن يكون مكتبه نظيفاً، وينتظر

الحالات المتيسرة حتى يعالجها في القسم الاستشاري النظيف الذي يشرف عليه، دون أن يعبأ بما يحوي في جوفه أناس يتوجعون مما ألم بهم !! يستقبلك مع الأعداد الضخمة من المرضى أطباء امتياز يتعلمون فيك الطب، وأنت وبختك في تشخيصهم، أو في الدواء الذي يرغمك على شرائه من الخارج، ليست لك حقوق على الدولة في أن ترعاك في شدة مرضك، تتذكر تلك المستشفى كيف كانت زاهية في ستينيات القرن الماضي، عندما كنت تأتي لزيارة أبيك الذي ترعاه الدولة وتوفر له كل سبل الراحة والرعاية التامة والتي لم يعد لها وجود إلا في المستشفى الاستشاري، طالما لديك المقدرة على أن توفر كل ما يطلبونه منك تعالج !! تتصفح عيناك الذابلتان وجوهاً شاحبة مثلك، حط عليها البؤس والمرض وهي تئن من أوجعها، تبصق في قرف على كل من جروا هذا البلد لذاك المستنقع الذي جعلوك تحيا فيه مثل الفئران، كل شئ من حولك كريه وبغيض!! وحياة لا تلذ ؛ تصحبك فيها الحَوّجة والشقاء وأخيراً المرض !! تبصق على كل الأوضاع التي تحاصرك، وتلعن كل من شوه هذا الجمال، وسرق من مقلتيك تلك الراحة والهدوء والدعة التي كنت تنعم بها في صغرك !! تزفر صهداً وتتحسر على تلك الأيام الجميلة التي كان دخل أبيك يكفي طلبات البيت دون أن يعلق مثلك في طاحونة الحوجة ! تبظ من عينك المتعبة دهشة على ذاك الوجه الذي

غـاب عـن ناظريـك كل هـذه الأعـوام، وهـو يبـادرك بنفـس السـخرية اللاذعـة، مـاداً ذراعيـه في سـعادة :

« أنت لسه عايش ؟!! »

تأخـذه في حضـن اشـتياقك، وأنـت تربـت عـلى جسـده الناحـل مـن سـقمه وشـقاءه، وأنـت تقـول بنـبرة معجونـة بهزلـك وتعبـك وشـقاءك وألمـك :

« أيـوه لسـه عايـش، بـس مـش زيـي مـا ربنـا عايـز، لأ، زيـي مـا حاكمنا عايزيـن !! »

القاهرة في / ٤ ـ ١ . ـ ٢٠١٤